

الوطن خارج المكان:

دراسة في السيرة الذاتية لإدوارد سعيد

أحلام مسعد*

تاريخ الاستلام 2019/5/30

تاريخ القبول 2019/7/22

ملخص

يسعى هذا البحث إلى قراءة الأسباب الكامنة وراء عدم تعلق إدوارد سعيد بمكان محدد للهوية، أو بمكان يحرص على استعادته بوصفه المكان المفقود المثير للحس النوستالجي لديه، استناداً إلى التصورات التي تضمنتها سيرته الذاتية "خارج المكان"، والتي تمثل نموذجاً متفرداً في التعامل مع الظاهرة المكانية، إذ ظهرت فيها صورة مفارقة على نحو حاد للصورة القارة في الأدبيات التقليدية في مختلف الثقافات حول علاقة الإنسان بالمكان - الوطن - خاصة في حالة الإنسان المنفي، فقد قدم سعيد صورة جديدة لعلاقته بالمكان تنسجم مع الأطر المكانية المختلفة التي عاش فيها، بكل مكوناتها الثقافية والاجتماعية، والتي انتقد فيه الألفة والهوية والإحساس بالأمن، ورسخت لديه الشعور الواعي بأنه دائماً في غير مكانه، ودفعته للبحث عن خلاص يتعالى على فكرة الارتباط بالمكان، ويمكنه من الانعتاق من الماضي في الوقت نفسه.

الكلمات المفتاحية: إدوارد سعيد، الوطن، الهوية، النوستالجيا، المكان.

المقدمة

تؤكد الأدبيات في الثقافات المختلفة وعبر تاريخ الوجود الإنساني العلاقة الوجودية بين الإنسان والمكان، ويركز علماء النفس والاجتماع على هذه العلاقة انطلاقاً من كون الإنسان يعرف بمكانه، ومسقط الرأس ومرايع الحياة؛ مما يعني أنه ليس ضائعاً في الكون، بل لا بد أن يملك مكاناً ينتمي إليه، فهو "كائن مكاني، في المكان يعيش ويتشكل وجدانياً وثقافياً واجتماعياً، وبالمكان يتعرف، فهو الذي يمنحه مغزى وجوده، ويشبع حاجاته إلى الطمأنينة والألفة والانتماء، فهويات البشر هويات مكانية"¹.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2019.

* مركز اللغات، جامعة اليرموك.

ولقد شكلت تجربة النفي من المكان العنصر الأكثر قسوة ومرارة في كتابة السير الذاتية عند المنفيين، سواء أكان النفي قسرياً أم اختيارياً، وبصورة خاصة المنفيين الفلسطينيين حيث يشكل الوطن قيمة عليا ومجموعة من الأحاسيس التي مثلت جزءاً ومحوراً مهماً في سيرهم الذاتية، كما هي الحال في "دروب المنفى" لفیصل الحوراني، و"صور الماضي" لهشام شرابي، و"غربة الراعي" لإحسان عباس، وهي تجارب تشخص الحس النوستالجي على نحو واضح، وتعبر عن الشعور الممض بالفقد والتيه.

لكننا نقف في "خارج المكان"، السيرة الذاتية لإدوارد سعيد على ذات "لامكانية" تخالف ما تعورف عليه في علم النفس والاجتماع، وتسعى بصورة مستمرة إلى نفي المكان الذي تسكنه، فإذا كان الوطن في أحد معانيه أن تكون في المكان الصحيح حيث الانسجام بين المكان والهوية والذات، فإن إحساس سعيد الدائم أنه (out of place) أي في غير محله، أو في المكان الخطأ في كل مكان وجد فيه، أدى به إلى صياغة تصوره الخاص للوطن الحقيقي في هذه السيرة، وذلك وفق خطة محكمة، ومدروسة تسعى لنفي الوطن بل المكان بكل مسمياته، ابتداءً بالقدس مسقط رأسه، مروراً بالقاهرة وظهر الشوير وانتهاءً بالولايات المتحدة. وإذا كانت الهوية تتشكل ضمن حدود المكان "الوطن" الذي ننتمي إليه بكل مكوناته السياسية والثقافية والاجتماعية، التي تجعلنا رهينة هذا المكان وجزءاً من روحه، فإن سعيد ينشق على هذه القاعدة، ويخبرنا أنه كان دوماً خارج المكان وفي غير محله حتى فيما يفترض أنه موطنه. وهو ما يفسر الحضور الباهت لمفردة "الوطن" في سيرة يعد المكان مفصلاً رئيسياً فيها. وقد أكد سعيد تصوراتة الفكرية تلك في كتابه "تأملات حول المنفى" حيث يستعير نصاً لفيلسوف هوغو يصف علاقة الإنسان بالمكان:

"إنه لمصدر عظيم من مصادر الفضيلة لدى العقل المتمرس أن يتعلم في البداية شيئاً فشيئاً تغيير نظرتة إلى الأشياء الظاهرية والعابرة، كيما يتمكن بعدئذ من تركها وراءه إلى الأبد. فمن يجد وطنه عزيزاً وأثيراً لا يزال غراً طرياً، أما الذي يجد موطنه في كل أرض فقد بلغ القوة، غير أن المرء لا يبلغ الكمال قبل أن يعتبر العالم أجمع أرضاً غريبة. فالنفس الغضة تركز حبه على بقعة واحدة من العالم، والرجل القوي يشمل بحبه كل الأماكن، أما الرجل الكامل فهو الذي يطفئ جذوة الحب لدي"².

يقدم هيرمان عدة تعاريف لمصطلح الوطن، منها: "هو مكان يتصل به الإنسان اتصالاً خاصاً، إما لولادته فيه، وإما لطول إقامته هناك، وبكلام أكثر تحديداً، المواطن علاقة مكانية اجتماعية يطول أمدتها عموماً، وتتصف بقدر عال من الميل إلى المكان والانتساب إليه، سواء أكان مكان الميلاد، أم السكنى، أو بيت الوالدين، أو بيت الفلاح وأرضه."³ فكلمة المواطن كانت

أول الأمر مصطلحا قانونيا محددًا تحديدا موضوعيا، لكن ذلك لا ينفي أنه كانت له في الوقت نفسه أبعاد عاطفية⁴ إلا أن تغييرا طرأ على هذا المصطلح في القرن التاسع عشر ليكتسب مفهوما جديدا حيث يصبح الوطن "وسيلة تقدم واقعا رومانسيا يقابل الواقع الاجتماعي"⁵، ثم ظهر فهم جديد للوطن، يرتبط بمدى فاعلية المرء "فالموطن لا يكون إلا بقدر محدود لمن نشأ فيه أو انحدر منه، إنما هو لمن يعمل على تشكيله والتغيير فيه"⁶. فإذا كان الموطن حسب تعريف هيرمان يؤشر على أنحاء كثيرة تتعلق بدلالات متعددة مكانية واجتماعية وعاطفية تمنح الفرد الهوية والحماية والقدرة على الفعل، فما هو الوطن بالنسبة لسعيد؟

1- القدس: النفي

على الرغم من ولادة سعيد في القدس، وعيشه سنواته الأولى فيها، فإن صورة الوطن مكان الولادة يغيب في حديثه عن تلك المرحلة؛ فهو لا يقدم القدس بوصفها الفردوس المفقود، أو مكانا يشفق إليه، بل "كانت فلسطين مكانا أسلم به تسليمًا، بما هو الوطن الذي أنتمي إليه، يعيش فيه أقرباء وأصدقاء بطمأنينة لا تحتاج إلى تفكير (أو هكذا يبدو الأمر اليوم في نظرة استرجاعية)"⁷.

إذا كان الوطن في أحد معانيه، كما يتكرر في المرجعيات الخاصة بدراسته، يعني الألفة في الإطار الاجتماعي والثقافي، فإن سعيد في حقيقة الأمر كان فاقدا لهذه الألفة، وقد عبر في الصفحات الأولى من سيرته عن حالة الارتباك والقلق الوجودي التي لازمتها منذ لحظة ولادته، وأفقدته القدرة على الانسجام والانتلاف مع محيطه حتى في موطنه ومسقط رأسه: "وقع خطأ في الطريقة التي تم بها اختراعي وتركيبني في عالم والدي وشقيقتي الأربع، فخلال القسط الأوفر من حياتي المبكرة لم أستطع أن أتبين ما إذا كان ذلك ناجمًا عن خطئي المستمر في تمثيل دوري، أو عن عطب كبير في كياني ذاته. وقد تصرفت أحيانًا تجاه الأمر بمعاندة وفخر. وأحيانًا أخرى وجدت نفسي كأننا يكاد أن يكون عديم الشخصية وخجولًا ومترددًا وفاقدًا للإرادة غير أن الغالب كان شعوري الدائم أنني في غير مكاني"⁸.

وقد ارتبط هذا الارتباك بالمكان بشكل مباشر، وبصورة أساسية بفلسطين فعلى الرغم من كونها موطنه ومسقط رأسه، فإن والده الذي يحمل تاريخًا غامضًا وملتبسًا، عمل على تغيير المكان - فلسطين - بشكل كامل من حياته وحياة الأسرة، فالأب يعرف نفسه بنبرة توكيدية يصفها سعيد بالوقحة، بأنه مواطن أمريكي، ولم يكن الوضع أفضل حالًا مع أمه، يقول: "خلال نشأتي لم تفصح أُمِّي إلا القليل عن أصلها وماضيها، مثلها في ذلك مثل أبي"⁹. ويكرر أنها كانت تحدثه بالعربية والإنجليزية معًا، حتى إنه لا يعرف أيهما لهج به لسانه أولاً، وهو ما أورثه قلقًا بقي ملازمًا له؛ إذ عجز عن استيعاب هوية واضحة المعالم وثابتة. فإذا كانت الهوية بمعناها

الاصطلاحي هي "ما يجعل شيئاً ما متشابهاً مع شيء آخر"¹⁰ فتلك إشكالية عانى سعيد منها منذ أن كان صغيراً، ذلك أنه لم يكن يوماً كلي الشبه، بل كان مجموعة مختلطة من المحددات اللغوية والوطنية والاجتماعية والدينية، فالاسم نصفه عربي ونصفه الآخر غربي، واللسان كذلك، أما الوطن فهو فلسطيني المولد، لكنه يحمل الجنسية الأمريكية، حتى حياته الاجتماعية والثقافية زخرت بمثل هذه الاختلاطات، التي أفقدته القدرة على امتلاك هوية محددة تميزه عن الآخر، وحين كان يواجه بسؤال الهوية وهو طفل صغير كان عليه أن يخترع في كل مرة هوية تتسق مع السياق المكاني الذي يكون فيه:

"تقول إنك أمريكي مع أن اسمك ليس أمريكي وأنت لم تزر أمريكا قط، لا يبدو شكلك أمريكياً، كيف يعقل أن تكون ولدت في القدس وأنت تعيش هنا؟ أنت عربي. في نهاية المطاف، ولكن من أي نوع؟ هل أنت بروتستانتية؟ لا أذكر أن أياً من الأجوبة التي جاهرت بها رداً على تلك الاستجابات كانت مقنعة أو حتى جديرة بأن تعلق في الذاكرة، وكان علي أن ابتكر خياراتي بمفردتي، فأحدها قد يصلح في المدرسة مثلاً، ولا يصلح في الكنيسة أو في الشارع مع الأصدقاء"¹¹.

هذا الإدراك المبكر الذي يربط الهوية بالمكان، والقناعة بزيف الهوية التي اكتسبها من والديه صغيراً، أكسبه إحساساً شبه يقيني أنه في غير مكانه؛ وحين يحدد المرء مكانه إنما يحدد نفسه وهويته، إذ "يرمز المكان إلى مجموعة من الصفات الثقافية المميزة، ويقول شيئاً ليس عن أين تقطن، أو من أين أنت، وإنما من أنت"¹².

لقد ظل حضور القدس باهتاً في حياته بعد أن غادرها إلى القاهرة، والأصل أن يكون اغترابه واقتلاعه من الأرض سبباً في إحساسه بالفقد والحنين، لأننا "لا نعرف ما نملك في الموطن حتى نعرفنا ذلك الغربة"¹³، وهذا ما عجب له سعيد وعجز عن تفسيره، كما يظهر في قوله:

"وما يستعصي علي تفسيره الآن هو كيف اتفق أن مسألة فلسطين وخسارتها الفاجعة، التي هيمنت على حياتنا أجيالاً، وأثرت عملياً في جميع معارفنا، محدثة تغييرات عميقة في عالمنا، تعرضت لقمع نسبي من قبل والدي: فلا هي مدار نقاش ولا تستحق منهما تعليقا"¹⁴.

ويبدو أن تغييب فلسطين كان نتيجة حتمية لموقف والده الذي لم يكن يحبها؛ لأنها تذكره بالموت؛ فعمل على إسقاطها من حياته وحياة أسرته. فهل هي طبيعة الأب الصارمة والمنشغلة بحاضرها عن ماضيها، حيث كان يردد دائماً: "ما مضى مضى وانقضى يكفي الرجل الحكيم أن ينشغل بالحاضر والآتي"¹⁵، أم هي مبادئه الماسونية التي يؤمن بها، والتي يعد الوصول إلى الأممية العالمية واحداً من أهم مقاصدها، وهو ما كشف عنه سعيد في سيرته بقوله: "لقد اعتاد

أبي ارتداء زي التاكسيديو في الأماسي التي يذهب فيها إلى اجتماعات المحفل الماسوني البالغة السرية"¹⁶.

ويشير سعيد إلى أنه لم يختبر فلسطين تاريخا وقضية إلا من خلال أحاديث عمته التي كانت تساعد اللاجئين الفلسطينيين في مصر، وتراقبهم وتشاهد عذاباتهم ومعاناتهم اليومية. وهو ما يفسر غياب مصطلح الوطن من سيرته الذاتية إلا في مواضع محدودة جدا، وحين يذكر الوطن يذكره بحيادية كاملة، "نادرا ما ذكرت فلسطين، الوطن الضائع، مجددا إلا مرة واحدة خلال عامي الأخير في المدرسة الأمريكية"¹⁷.

وقد عبر عن حالة من الفصام الفكري التي عانى منها صغيرا تجاه فلسطين، و تعامل مع المكان بتجرد كامل من أي ارتباط به، فكان ينظر إلى الفلسطينيين واليهود باعتبارهم ضحيتين تتساويان في الحق؛ فهو يستشعر معاناة الفلسطينيين وتشردهم بعدما سلبوا أرضهم، لكنه من جهة أخرى ينظر إلى فلسطين باعتبارها بلدا مناسبا لليهود كما يعتقدون، انطلاقا من رؤيته للقراءة الطباقية، والطباق (contrapuntal) مصطلح موسيقي ويعني: "الاستعمال المتزامن للحنين (ميلودي) أو أكثر لإنتاج المعنى الموسيقي، بما يسمح بالقول عن أحد الألحان إنه النقطة المضادة، أو في حالة تضاد مع لحن آخر، قابلين لتبادل موقعيهما: ومثل ذلك التضاد الثلاثي والرباعي"¹⁸. وقد استفاد سعيد من هذا المصطلح في قراءته للتاريخ الاستعماري المروي، وهي قراءة جديدة تدخل في حسابها العملية الإمبريالية، والعملية المقاومة لها، لتشتمل على ما تم إقصاؤه بالقوة، ولتتجاوز الفكر الإقصائي المنغلق على نفسه.

والقراءة الطباقية هي أداته التي وظفها في معركته الثقافية فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي، وهذا ما جرّ عليه الكثير من الهجوم والاعتداءات:

"كنت أعاني أنا نفسي فصاما تجاه فلسطين، ولم أنجح في محاولاتني تجاوزه ولا أنا أدركته تمام الإدراك إلا مؤخرا عندما أقلعت عن المحاولة. وحتى هذا الوقت الحاضر، فإن ذلك الازدواج المستمر في نظرتي إلى المكان وإلى خسارته المحزنة بالاقتران المركب والتمزيق (كما يعبر عنها العديد من الحيوانات المشوهة، بما فيها حياتي) ونظرتي إلى موقع فلسطين بما هي بلد رائع لهم هم (وطبعا ليس لنا) يوجعني على الدوام ويورثني شعورا محبطا بأني وحيد وأعزل ومعرض لاعتداءات أشياء تافهة، تبدو مع ذلك هامة وخطيرة، ولا أملك تجاهها أي سلاح"¹⁹.

وقد لازمته هذه الحال من غياب الإحساس بالوطن بعد انتقال العائلة إلى نيويورك: "كانت فلسطين تلوح كلمح البصر ثم تختفي سريعا من حياتنا النيويوركية"²⁰. وحين قرر العودة إلى أصوله الفلسطينية بعد غياب طويل بعيد حرب 1967، وصف عودته إلى العالم العربي بأنها عودة

سياسية ثقافية، ومحاولة لتجسير الهوية بين عالمين متباعدين: عالم بيئته الأصلية العربية، وعالم تربيته الأمريكية، فاختر أن ينشق مرة أخرى على هويته التي فرضت عليه من قبل والديه، ليعود بمحض إرادته إلى هويته العربية، ولكنها عودة فكرية إنسانية سياسية غير مرتبطة بالمكان - الوطن بالمعنى العاطفي. لقد كان اختياره الانتماء "للوطنية الفلسطينية حلا لما تنازعه من حيرة تعدد الهويات المتصارعة، وهو ما انجلى عن إرادة أن يكون فلسطينيا، فلقد كانت حرب يونيو/ حزيران 1967، وما تلاها من حوادث، بمثابة فرصة سانحة له لكي يحسم أمره ويعلن ولاءه السياسي للهوية الفلسطينية دون أية من الهويات الأخرى، فيما أنه يؤمن أن الهوية بناء ثقافي، ومثلها في ذلك مثل أي بناء ثقافي آخر، هي إعراب عن إرادة قوة ما، فإنه رأى أن للمثقف إرادة واعية يمكن الإعراب عنها من خلال الدور الذي يلعبه، وهو كـمـثـقـف شـاء أن يكون فلسطيني الهوية والولاء"²¹.

لقد وجد سعيد طريقه إلى التعالي على الأمكنة والانتماء إليها أو الارتباط بها من خلال رؤيته التي تشخص المعرفة الأكاديمية، بوصفها العنصر الذي يمكنه من ذلك، يقول: "علينا أن نعد المعرفة شيئا نأخر من أجله بالهوية، وعلينا أن ننظر إلى الحرية الأكاديمية على أنها دعوة إلى التخلي عن الهوية على أمل أن نفهم، بل ربما، نتخذ أكثر من هوية واحدة. علينا أن نرى إلى الأكاديمية على الدوام بوصفها مكانا نرتحل فيه دون أن نمتلك منه أي شيء، لكننا نشعر أننا في موطننا أنى ذهبنا"²².

إن مثل هذا التصور، الذي يستند سعيد إليه، يمثل طريقا للخلاص من ازدواج الهوية، ومن ضياع المكان الذي يمكن أن تتحدد به ومن خلاله، ويمثل في الوقت نفسه انتصارا على ما يسميه السعي إلى تحقيق فكرة طوباوية، أرض الواقع كما يقول: "من منظاري الجديد بوصفي عربيا بالاختيار، أعدت قراءة حياتي المبكرة بما هي حياة من البحث عن الانعتاق والتحرر من القوالب الجامدة للعائلة والدين والقومية واللغة أيضا - قراءة تعيد إلي ما كنت أرغب فيه من تكييف أفضل وأكثر تناغما بين ذاتي العربية وذاتي الأمريكية، وكلما أوغلت في ذلك الجهد ازدادت اقتناعا بأني إنما أسعى إلى تحقيق فكرة طوباوية"²³. وكان من الواضح مبكرا أن سعيد لا يدافع عن الوطنية الفلسطينية قدر دفاعه عن الانفتاح الثقافي البعيد عن التحيز الإيديولوجي أو العرقي.

لعل عدم تعلق سعيد بمكان محدد للهوية، أو بمكان يمكن استعادته، ارتبط بتكوينه منذ طفولته في إطار الأسرة والمدرسة والمحيط الاجتماعي، فقد عاش في أطر متنافرة أو حالة تجمع المتناقضات التي صعب عليه أن يوفق بينها، ولذا فقد سعى إلى إيجاد مخارج خاصة به للتغلب على هذه الحال الشاذة، فلجأ منذ مرحلة مبكرة، في طفولته، إلى الخيال من أجل خلاصه منها

يقول: "ومن تخيلات المتكررة في هذا المضمار، وهي أيضا موضوع إنشاء مدرسي كتبته عندما كنت في الثانية عشرة، أني تخيلتني وقد أضحيت كتابا، ظنا مني أن الكتاب ذو مصير سعيد لانعتاقه من التغيرات غير المستحبة، ومن التشويهاات في الشكل، ومن النقد لمظهره. وكان الكلام المطبوع يتكون في رأيي من مزيج نادر من التعبير، من حيث أسلوبه ومضامينه، ومن الثبات المطلق والكمال من حيث المظهر، وإن أنتقل من يد إلى يد ومن مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان، أستطيع المحافظة على كياني الذاتي الحقيقي (بما أنا كتاب) على الرغم من احتمال أن يرميني أحدهم في السيارة أو أن ينساني في قعر درج من الأدراج"²⁴.

تكمن أهمية هذه الأمنية في أنها تصور قناعات سعيد بضرورة تحرر الذات لتتشكل، وأنه لا بد لها من الانعتاق الكلي والمطلق من اشتراطات المكان والزمان للحفاظ على نقائها الحقيقي. فالمكان يصير قيادا للإنسان بمجموعة الأنماط السلوكية والفكرية المرتبطة به. وحالة الانعتاق الكلي للكتاب، أشبه ما تكون بحالة النفي والتشرد التي أشار إليها، والتي تجعل صورة المنفي صورة نموذجية للمثقف: "إذا فكرت بالمنفى كحالة دائمة، بالمعنيين الحرفي والثقافي، فإن الأمر سيبدو واعدا رغم صعوبته، إنك تتحدث هنا عن الحركة، عن التشرد، بالمعنى الذي تحدث عنه لوكاش في "نظرية الرواية" التشرد الذي يؤدي إلى نوع من التصعيد، وهو ما يمكن أن يؤدي نوعا من الرحلة الثقافية التي أربطها بالنقد... التشرد وافتقاد البيت هي العلمانية التي تعني من بين ما تعني اندراج المرء في العصور والأزمنة والتاريخ لا في عالم اللاهوت. أو نظام اللاهوت المتعالى الذي ينجذب إليه العديد من مثقفي اليسار الآن"²⁵.

وهذا تصور بقي ملازما لسعيد في سيرته، فإذا بهويته تتشكل من خلال تعدد الأمكنة وتوزعها بين الشرق والغرب، وليس من خلال الثبات والاستقرار. "يعلم المنفي أن الأوطان في عالم علماني وعارض، مؤقتة وعابرة على الدوام. بل إن الحدود والحواجر، التي تسيجنا بأمان المنطقة المألوفة يمكن أن تغدو سجوناً ومعازل، غالبا ما يدافع عنها وتحمى بلا مبرر أو ضرورة، أما المنفيون فيعبرون الحدود ويحطمون حواجز الفكر والتجربة"²⁶.

إن هذا التصور الذي يقدمه سعيد يخالف على نحو حاد الصورة القارة في الأدبيات التقليدية في مختلف الثقافات عن جدل العلاقة بين الوطن والمنفى، ويمثل هذا التصور طرحا جديدا ينسجم مع الأطر المكانية والثقافية والاجتماعية التي وجد نفسه فيها، والتي لم تمنحه الألفة أو الإحساس بالأمن، كما لم تتشكل فيها ألفتة بالناس واللغة والأمكنة. وقد كانت شخصيته العالمية المسندة بسلطة المعرفة العامل الحاسم في تجاوزه الصور المألوفة للتعلق بالمكان - الوطن - أو بالهوية الضيقة الأفاق.

إن ارتباط سعيد بالعالم العربي ارتباط سياسي ثقافي بالدرجة الأولى، وليس عاطفياً. ولما كانت "كل الأحاسيس مكانية"²⁷، والموطن كلمة و"قيمة تحمل الكثير من الأحاسيس"²⁸ يجد النقاد صعوبة في تصنيف سعيد أو حصره في اتجاه واحد. فالحنين إلى المكان بالمعنى النوستالجي يغيب من حياته، ولم يظهر إلا عقب مرضه، وعلى نحو عابر ملتبس، فقد قرر العودة إلى فلسطين في 1992 في أول زيارة له بعد غياب خمس وأربعين سنة مع زوجته وولديه، حيث زار منزل عائلته في القدس الغربية، والمنزل الذي سكنته أمه في الناصرة، ومنزل خاله في صفد، ثم عاود زيارة القدس عقب الفراغ من تأليف سيرته عام 1998، إلا أنه منع من دخول منازل أهله، ولو لمجرد إلقاء نظرة، ليسلب المكان والزمان معاً. ولكن، لماذا لم يفكر سعيد بزيارة القدس إلا بعد مرضه؟ هل لأن المرض يعود بالنفس البشرية إلى ضعفها الفطري وتعلقها الأولي بالمكان؟ أم هو نتيجة لإحساسه بغبن الرواية الإسرائيلية التي تحاول تجذير الهوية اليهودية مقابل اقتلاع الآخر؟ وإن كان المرجح أن مجموعة من العوامل دفعته إلى العودة إلى مسقط رأسه، لكنها ليست بدافع الحنين بقدر ما كانت لتأكيد الموقف الفكري المنتصر لقضيته. وهو ما ذكره في أحد حواراته: "ورغم ولادتي في القدس، فإن إحساسي بفلسطين ظل يدور حول فلسطين الفكرة لا المكان الفعلي. وحين زرت فلسطين بعد غياب طويل، في عام 1992، وجدت نفسي في حال من النزاع معها أيضاً"²⁹.

والطريف أن إحساس فقد الوطن الذي استشعره لأول مرة في زيارته الأخيرة للقدس كان مفاجأة بالنسبة له، لمنافاته التصورات الفكرية وحالة اللاانتماء التي يؤمن بها، فلم يكن يعتقد أنه سيختبر يوماً هذا الحس، ما دام أن ارتباطه بفلسطين ارتباط موضوعي فكري: "وكان أحد الأسئلة الروتينية التي وجهها إلي الموظفين الإسرائيليون (لما كان جواز سفري الأمريكي يشير إلى أنني ولدت في القدس) ما هو الموعد المحدد الذي غادرت فيه إسرائيل بعد الولادة. فكننت أجيب أنني غادرت فلسطين في كانون الأول/ ديسمبر 1947 مشدداً على كلمة فلسطين. "هل لديك أنسياء هنا؟ كان السؤال التالي الذي أجبت عليه بـ "لا أحد" وقد امتلكني شعور من الحزن والخسران لم أكن أتصور أنني سوف اختبره"³⁰.

هذا التشديد اللفظي على فلسطين والإجابة التي تنفي أن يكون بقي في القدس أحد يعرفه يشي بإحساس مرير بالفقد والاستلاب، "إحساس بالضيق الناجم عن حالتها الغياب والإحلال المتلازمين يستشعره في هذا الموقف الشاذ والغريب"³¹.

القاهرة: الطرد

تشغل القاهرة حيزا واسعا ومهما في "خارج المكان"، ويصرح سعيد غير مرة أنها المدينة الوحيدة التي يشعر فيها أنه في بيته، وعلى الرغم من طول إقامته فيها فإنه لم يشعر يوما بالانتماء إليها: "إننا ندرك في الوقت ذاته أن القاهرة لا يمكنها أن تكون على المدى البعيد وطن المستقبل كما نتخيله"³² فقد كانت على الدوام بيئة غير آمنة وطاردة له وللأسرة. ولكنها تحضر بوصفها مكانا لتجلي المركزية الغربية، والهيمنة الكولونيالية، "إذ هي صورة بارزة لفسيفساء بشرية عجيبة أفرزتها الممارسات الكولونيالية، التي عملت على انتزاع أية علاقة للفلسطيني إدوارد سعيد بالقاهرة بوصفها مكانا من شأنه أن يعني عقل ووجدان سعيد الطفل والشاب بالعناصر اللازمة لتشكيل الوعي بالهوية"³³.

لقد كانت هذه التجربة القاسية سببا في تشكل هويته العربية، وذلك بوضعها في موضع التضاد مع الهوية الأجنبية، وبوصفها فعل مقاومة للكولونيالية، وهو ما عبر عنه في إحدى مقابلاته الصحفية: "الهوية هي الشيء الذي يتأسس على إحساس بعدم السماح له بالوجود. وأزعم أنها تصاغ بعد، كرد فعل لشعور بخطر الإبادة. فلا يعني الأمر أنني أملك هوية ما [أن] يأتي شيء معين ليهددها، بل إن شيئا يحدث كمصدر تهديد، ليدفعني إلى تشكيل نفسي بطريقة دفاعية ككيان أو كجزء من كيان جماعي منظم لمكافحة الخطر. إن حالة العداء بمعنى ما، هي بالضبط ما يجمع عناصر مشتتة في ذات الفرد أو الجماعة لتشكيل وحدة سياسية القاسم المشترك بين عناصرها في ضرورة الدفاع عن نفسها أمام حالة العداء"³⁴. فبعد انتساب سعيد إلى كلية فيكتوريا وهي مدرسة معدة لتكون "إيتون"³⁵ الشرق الأوسط وجد نفسه في مواجهة سلطة كولونيالية، تعمل على فرض لغتها وثقافتها على الطلاب كونها الثقافة السائدة في مصر: "فجأة حولنا كراس صغير بعنوان دليل المدرسة إلى سكان أصليين". تقول القاعدة رقم واحد فيه: "الإنكليزية هي لغة المدرسة، كل من يقبض عليه متكلمًا لغات أخرى يتعرض لعقاب صارم، فصارت العربية ملاذنا، لغة مجرمة نلجأ إليها من عالم الأسياد ومساعدتي الأساتذة المتواطئين ومن زملائنا المتأنكليزيين الأكبر سنا الذين يتجبرون علينا باسم فرض التراتب المدرسي وتطبيق قوانينه. وبسبب القاعدة رقم واحد صرنا نتكلم العربية أكثر، بدلا من أن نتكلمها أقل، تحديا لما اعتبرناه، وأعتبره الآن أكثر من ذي قبل، رمزا اعتباطيا لسلطتهم يبلغ درجة من السخف تثير السخرية"³⁶.

وفي القاهرة تشكلت أولى تصوراتها عن الوطن من خلال حضور الآخر الإنجليزي في "مدرسة الجزيرة الإعدادية" التابعة للمجلس الثقافي البريطاني: "لم تكن لي علاقات متصلة

بأولاد الإنجليز خارج المدرسة؛ ذلك أن حبل سرّة سريًا كان يجمعهم ويخفيهم في عالم آخر مغلق علي، فأدركت تمام الإدراك كيف أن أسماءهم صحيحة تمامًا، وملابسهم ولكناتهم ومعاشراتهم مختلفة كليًا عن ملابسي ولكنتي ومعاشراتي، ولا أذكر أنني سمعت أيا منهم يشير مرة إلى الوطن، غير أنني ربطت فكرة الوطن بهم، وإذا الوطن بمعناه العميق، هو ما أنا مستبعد عنه³⁷. لقد ترسخت لدى سعيد فكرة أن تكون في المكان الصحيح يعني أنك في وطنك، المكان الذي سيحدد بالتالي هويتك بمكوناتها الدينية واللغوية والثقافية، وأي خلل أو ارتباك في هذه المكونات يعني أنك في غير مكانك. إن ضياع الذات وارتباكها واقتران ذلك بضياع المكان سمة عامة في أدب ما بعد الاستعمار، وذلك نتيجة "تآكل الإحساس بجدوى الذات وفعاليتها من خلال عملية الإبعاد الناتجة عن الهجرة أو تجربة العبودية، أو الترحيل، أو الحركة الطوعية للعمال الملتزمين بعقود عملهم، أو ربما تدمير هذا الإحساس بجدوى الذات وفعاليتها من خلال عملية التشويه الثقافي، أي القمع الواعي وغير الواعي للشخصية والثقافة الوطنيتين، من خلال ما يفترض أنه نموذج ثقافي وعرقي متفوق"³⁸.

وعلى الرغم من أن القاهرة هي من أكثر الأمكنة التي أحبها، كما صرح سعيد في غير مكان من سيرته: "المدينة التي أحببتها على الدوام دون أن أشعر مرة بانتمائي إليها"³⁹ فإنها كانت مكانًا طارداً له؛ حيث تعرض غير مرة إلى الطرد: أما الأولى فكانت الأشد والأكثر قسوة، وهي التي كشفت له تهافت ادعاء أهله أنه مواطن أمريكي ودونيتهم كشرقيين، حين اعترض ذات يوم إنكليزي طريقه في النادي، وطرده لأنه عربي: "يا ولد غادر المكان فقط، وغادره بسرعة، ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان، وأنت عربي"⁴⁰.

أما عملية الطرد الثانية، فهي التي تعرف بها على أخطر تجاربه في مقاومة السلطة والانتماء، حين طرده مدير الكلية من قاعة الدرس، وعلم حينها معنى أن يكون خارج المكان، يقول:

"وجدتني فجأة قد خرجت من كل دائرة سكنتها من قبل، معزولاً معيماً مذهولاً مرفوضاً في المدرسة خائفاً من العودة إلى البيت... اختبرت إحساساً عائماً وطوباوياً بالمعنى الحرفي للكلمة بأني خارج المكان، وقد تحررت من جسدي، وانعتقت من كل الارتهانات والواجبات والقيود المعتادة. لم أشعر قط أنني حر بمنأى عن أي توجيه على النحو الخطير الذي شعرت به حينها. كنت ببساطة أمشي باتجاه البيت دونما هدى غير معرفتي بأني سوف أنتهي إليه عاجلاً أم آجلاً"⁴¹؛ وهي تجربة تعرف خلالها على أول أشكال القوة التي طالما تحدث عنها في كتاباته فيما بعد؛ وهي حالة اللاانتماء، والخروج على المكان حيث مسؤولية الحرية الخطرة، وقد تحررت الذات من المكان واشتراطاته الماحية لوعيها، وهو ما بينه في كتابه "صور المثقف": "الذي

يحدد المسار للمثقف كغير منتم هو وضع المنفى، تلك الحالة من اللاتكليف أبداً على نحو تام، والشعور دائماً أنك خارج العالم المهذار الذي يقطنه سكان أصليون"⁴².

والثالثة حين منع من دخول القاهرة بسبب خطأ قانوني وقع مصادفة أثناء عمله مع والده، فكانت النتيجة أن طرد منها: "منعت لخمس عشرة سنة من دخول المدينة الوحيدة في العالم التي أشعر فيها أنني في بيتي، إلى هذا الحد أو ذاك"⁴³. ومع تصاعد موجة العداء لكل ما هو أجنبي، بعد تولي جمال عبد الناصر الرئاسة، أصبح بقاؤهم في القاهرة يهدد أمن الأسرة ومستقبلها، وهو ما اضطرهم إلى مغادرتها نهائياً.

أما تجربة الطرد الأخيرة التي ختم بها المرحلة القاهرية في سيرته، فكانت بعد ثمان وثلاثين سنة من خروجه من القاهرة، حين قام بزيارة أكاديمية إلى القاهرة بصحبة أسرته، وكان يوم عطلة، فأتى بأسرته ليريههم المدرسة التي طرد منها سابقاً، وبعد دخوله قاعة الدرس القديمة التي طرد منها، داهمتهم مديرة المدرسة التي كانت ترتدي المنديل والجلباب، ورفضت مصافحته، ونظرت إليه بعداء قومي طالبة منهم المغادرة فوراً لدخولهم المدرسة بطريقة غير مشروعة. وليتكرر مشهد الطرد في المكان ذاته ولكن بصيغة إسلامية هذه المرة.

2- ظهور الشوير اللبنانية: العزلة

ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مفهوم جديد يعرف الوطن باعتباره وسيلة تقدم واقعا رومانسيا يقابل الواقع الصناعي الجديد، وهو مفهوم يلبس الوطن صورة إيجابية مشرقة حيث الطبيعة الوداعة، والخالية من كل عيب، وهي صورة حلمية وهمية تشعر المرء بالرضا والأمان، ولكنها في حقيقة الأمر تغفل الواقع المعيش. وقد كان بإمكان سعيد أن يجعل من قرية ضهور الشوير في لبنان موطننا يسكنه ويتغنى به ولو على سبيل الحلم، فعلى مدى سبع وعشرين صيفية متتالية كانت الضهور مصيف العائلة المفضل، وهي قرية أحبها أبوه، وكان يعتبرها أجمل بقاع الأرض، وادعت أمه كراهيتها مع أنها مسقط رأس أهلها، وفيها اختبر سعيد حبه الأول، لكننا نجده يتحدث عن هذا المكان بكثير من النفور والعدائية: "وإن ندخل الضهور أخيراً، عبر ضاحية الدوار الصغيرة ينتابني شعور يثيره المكان باستمرار، وهو مزيج من الأسى والرعب الداهم"⁴⁴. حتى الطبيعة الرعوية الجميلة في هذه القرية تصبح مصدر إزعاج وضيق له:

"أذهب والعب بالغابة" كانوا يقولون لي كأنما أشجار الصنوبر المهزولة وأجمات العليق الشائكة ملعب طبيعي مليء بالتسليلات المبهجة أو حتى بما ينور الأذهان"⁴⁵.

ويعود هذا النفور لأسباب عدة، بدءاً بحياة التقشف البدائية التي لم يعتد عليها في القاهرة، ويصر الأب عليها في هذه القرية، والفراغ الكبير الذي كان يستشعره فيها، ثم حالة الجفاء والانقطاع التي كانت تعترى والدته في تعاملها معه في الضهور وسلسلة المهمات الشاقة التي كانت تبتكرها لتبعده عن البيت ومشاكسة أخواته أكبر وقت ممكن، إضافة إلى الشعور الطائفي المضمّر الذي استشعره مبكراً في الاجتماعات العائلية هناك، وتؤكد له فيما بعد، عند وفاة والده الذي أحبها وأقام فيها لفترات طويلة جعلته يظن أنه من أهاليها، فكان أن أعرب عن أمنيته بأن يدفن فيها، ولكن الوصية لم تتحقق؛ "لأنه لم يكن أي من أهالي البلدة مستعداً لبيعنا قطعة أرض صغيرة نحقق عليها رغبته. فعلى الرغم من سنوات من إخلاصه للبلدة، والعديد من الإسهامات في حياتها المشتركة، وحبه لأهلها وللمكان ذاته، كان لا يزال يعتبر غريباً، في موته فلم يسمح له بالدخول إليها؛ ذلك أن الحياة الرعوية التي ظننا أننا ننعّم بها، ورفعناها إلى مستوى المثال لم يكن لها من موقع في ذاكرة البلدة الجمعية"⁴⁶.

والمفارقة الطريفة أنه قابل هذه العزلة والجفاف البيئي والنفسي بالارتواء الفكري والعاطفي؛ فعلى الصعيد الفكري استطاع قطع رتبة العيش في القرية بمجموعة فواصل ثقافية، كان لها أثر كبير في حياته الفكرية فيما بعد، فقد توثقت صلته بأحد أبناء جيرانه خلال أيام دراسته الثانوية: "لا شك أن الموضوعات الرفيعة التي كان منير يثيرها خلال مناقشتنا من الوزن الثقيل - معنى الحياة والفن والموسيقى - قد أسهمت في بلورة شخصيتي الفكرية"⁴⁷ فبدأ باستعارة كتبه الحاوية مقتطفات من أعمال كبار الفلاسفة الغربيين من أجل ترسيخ معرفته بهم، وهو ما أكسبه فكراً معقداً: "لازمي هذا الشعور بالتعقد بما يتجاوز الضهور المروعة، وظل ينمو في داخلي بعد مغادرتي إلى الولايات المتحدة عام 1951. والمفارقة في الأمر أن بذور ذلك التعقد بذرت في زمن حرمانني الأكبر. عندما كنت أتجول في طرقات المصيف الجرداء لا يشغلني سطحياً غير الحر وشعور عميم بالاستياء"⁴⁸، وعزز رقيه الفكري تعرفه على اثنين من أبناء معارفه يعترف سعيد بحضورهما الثمين في حياته حيث فتحا له عالماً غنياً من المعرفة.

أما على الصعيد العاطفي فقد انحصر معنى الضهور عنده شاباً بامرأة أحبها وكانت تكبره بسبع سنوات، ورغم تعلقه الشديد بها عدة سنوات، إلا أنه كان يدرك أن لا مكان لها في مستقبله، وقد تمكنت والدته أن تصرفها عنه بذكاء ودبلوماسية مما خلصه من عبء الزواج والالتزام الذي كان يقلقه.

3- الولايات المتحدة: الارتحال القهري

قدم هيرمان تعريفاً لمفهوم الموطن في أحد معانيه الجديدة قائلاً: "الموطن لا يكون إلا بقدر محدود لمن نشأ فيه أو انحدر منه، إنما هو لمن يعمل على تشكيله والتغيير فيه"⁴⁹. ولقد قضى سعيد في الولايات المتحدة سبعة وثلاثين عاماً نجح خلالها في فرض اسمه على الساحة الأكاديمية والثقافية، متجاوزاً الطروحات السابقة، ومؤسساً لدراسات ثقافية جديدة نجح في جعلها مفصلاً مهماً في الدراسات الثقافية والاستشراقية، حتى وسمت هذه الدراسات بما قبل إدوارد سعيد وما بعده. فكان من أبرز منظري الدراسات الاستشراقية والثقافية، لكن وعلى الرغم من هذا الإنجاز وطول إقامته في الولايات المتحدة فإن إحساساً عارماً كان يمتلكه أنه في غير مكانه، وكان أشد ما يؤلمه محاولات أمركته ولو صورياً: "أحزنني كثيراً أنني في مطلع كانون الأول/ ديسمبر 1951 صار الجميع يؤمركني بصفتي "إد سعيد" وهو ما دفعه إلى مقاومة محاولات دمجها بمزيد من الإصرار "أخذت أشق طريقي بالنضال ساعياً، بنجاح متزايد إلى التمسك بحساسية خاصة، بل إلى تنميتها، حساسية غرضها مقاومة التسويد والسوس الإيديولوجي الأمريكيين، وقد فعلاً فعلهما في العديد من زملائي في الصف"⁵⁰ ورغم عيشه الطويل في الولايات المتحدة، فإن حالة اللانتمية تحولت إلى صفة ملازمة له على مدى سبعة وثلاثين عاماً لم يفارقه فيها إحساس متوقع بالرحيل، وهو ما أورثه رغبة مستمرة بالارتحال على نحو مرضي، جعله يخترع المناسبات اختراعاً كي يغادر، لذا "يقدر سعيد الحركة من حيث ارتباطها بذاته، لأنه يستطيع من خلال الحركة أن يفلت من الجمود ومن إحساسه العارم بأنه خارج المكان"⁵¹ فإن يكون هنا يعني أنه خارج المكان، والأفضل له أن يكون هناك.

والمفارقة الطريفة هنا أن هذه الرغبة المستمرة في الارتحال والمقرونة بخوف سري من عدم تمكنه من العودة، كانت تمنحه شعوراً عارماً بالنشوة. وقد تفاقمت لديه هذه الرغبة مع مرضه الذي كان من المفترض أن يضع حداً لارتحالاته المتكررة، ولكن إحساس سعيد بهذا المأزق الوجودي حفزه لإحداث تغيير في حياته، وكان أول ما خطط له بعد مضي شهر على تشخيص مرضه هو الارتحال: "فكرت في إجراء عدة تغييرات في حياتي وقد أدركت دونما خوف ظاهر، أنها سوف تكون أقصر وأصعب من الآن فصاعداً. وخطرت لي فكرة الانتقال إلى بوسطن للعودة إلى مدينة عشت واستمتعت بالحياة فيها عندما كنت طالباً، ولكن سرعان ما اعترفت لنفسي بأني إنما أفكر على نحو استرجاعي في إيجاد مكان لأدفن نفسي فيه، لأن بوسطن مدينة هادئة قياساً إلى نيويورك فتخلّيت عن الفكرة"⁵².

فسعيد يرفض المكان الثابت حتى إن كان قبراً يضمه. لذا سرعان ما تخلى سعيد عن فكرة الارتحال الفيزيائي التي ستفوقه حتماً إلى مكان لا مكان بعده، واستعاض عنها بنوع جديد من الارتحال التخيلي جمع له مع رغبته الكامنة في السرد، متعة الانتقال والارتحال عبر ذاكرته المعطاءة التي قادته إلى البدايات حيث مراتع الطفولة والشباب، في القدس والقاهرة: "كان جوابي الثابت على مشقات مرضي المتزايدة هو الإكثار من الاستذكار ومحاولات إحياء نتف من حياة عشتها أو استحضر بشر غابوا. في عام 1992، نهبت مع زوجتي وولدي إلى فلسطين في أول زيارة لي منذ 45 سنة، وكانت تلك زيارتهم الأولى. وفي تموز زرت القاهرة بمفردتي متقصداً خلال إحدى المهمات الصحفية أن أزور مطارحي القديمة"⁵³.

هذا النص يكشف لنا أن عودة سعيد إلى القدس والقاهرة كانت عودة مدروسة وموضوعية ولغاية خدمة ذاكرته في كتابة سيرة تكاد تخلو من الحس النوستالجي. بل يعترف أنه حتى الستين من عمره لم يكن يطيق مجرد التفكير في ماضيه في القدس والقاهرة. حتى القاهرة التي قضى فيها ميعة شبابه لم يشعر بأي حماسة لإعادة امتلاك شقتهم التي تركتها أسرته قبل أربعين عاماً. والحالة الفريدة التي اعترف فيها بتفوق الحس النوستالجي على تصوراته الفكرية كانت بعد قدومه إلى الولايات المتحدة؛ لإتمام دراسته الثانوية في مدرسة ماونت هيرمون الداخلية وهو ما زال غضاً طرياً، وكان ذلك بسبب أمه التي جعلت عملية الانفصال عنها صعبة وشاقّة بما كانت تغمره من عاطفة: "كنت أتشوق للعودة إلى القاهرة، وأظن أحسب الفارق في الوقت بيننا وبينها (تاركا الساعة المزودة بجهاز الإنذار قرب سريري بحسب توقيت القاهرة، وأفتقد طعام أهلي القاهري خلال وجبات الأكل المدرسية... والأهم من ذلك كله أنني كنت أفتقد أمي، وإذا كل رسالة من رسائلها تعمق جرح الهجران والفراق الذي ينز في داخلي، أحيانا أسحب حقيبة ضخمة من تحت السرير وأروح أقلب في ألبومات الصور أو الرسائل ثم أروح أبكي بصمت"⁵⁴. ويعترف سعيد أنها التجربة الوحيدة المريرة التي كان يشعر بها وتورثه الحزن: "ففي كل سنة كانت عودتي إلى الولايات المتحدة في آخر الصيف تنكأ الجراح القديمة، فأعيد اختبار انفصالي عنها كأنه الانفصال الأول؛ وهو ما يورثني الحزن الذي لا يبرأ، والالتفات اليأس إلى الماضي، والتعاسة في الحاضر". هذه العاطفة المشبوبة بالحنين إلى الأم، والرغبة من الانفصال عنها أورثته ضعفاً وتعاسة. إلا أنه تمكن في العام التالي من التخلص من تلك العاطفة التي يصفها بالكتلة الشالة من مركز الاهتمام، واستبدل بها أموراً أكثر نفعاً ومنتعة حين أسلم أمره لذات أقل عاطفية، وأقل إعاقه حسب تعريفه. فالذات القوية تتشكل عند سعيد بالتخلص من كل التعلقات النوستالجية التي من شأنها تشويش المرء وإعاقة الحركة. وهو ما مكنه، ولأول مرة، من اكتشاف ذاته الجوانية، ولأول مرة يشعر سعيد بشيء من الانتماء على الصعيد الفكري وأنه ليس خارج المكان: "وإذا مسار الاكتشاف

الفكري المعقد (واكتشاف الذات أيضا) لم يتوقف منذ ذلك الحين. ولأني في البيت أو في ماونت هيرمون على الأقل. لم أكن خارج مكاني من جميع النواحي، فقد حفزني ذلك على البحث عن مداي الخاص، إن لم يكن على الصعيد الاجتماعي، فعلى الصعيد الفكري على الأقل⁵⁵ وذلك بفضل نظام التعليم الذي يعتمد على النقد والتخيل. وليس الحفظ والاستظهار، إلا أنه لم يكن جزءا من حياة المدرسة المشتركة وبقي يلزمه الإحساس أنه خارج المكان، وأنه ينقصه "الموقف السوي" على الرغم من تفوقه الأكاديمي، وتميزه في النشاطات الثقافية، وقد تكرس عنده هذا الشعور حين حرم من حقه في إلقاء كلمة الخريجين، ليلقيها من هو دونه مرتبة: "فأدرت أنه قد حكم علي أن أبقى اللامنتمي"⁵⁶، وأن وطنه الحقيقي هو اللامكان. وهو ما ذكره في إحدى كتاباته "من أولى الذكريات لدي ذكرى الحنين إلى الوطن، تلك الرغبة في الوجود في مكان آخر سوى الذي أشغله، ولكنني مع مرور الوقت أصبحت أرى فكرة الوطن فكرة مبالغاً في تقديرها، إن يرتبط بالأوطان الكثير من العاطفة المفرطة مما لا أكثرث له، أما الترحال فهو أحب الأعمال إلي"⁵⁷.

وقد وثق تلك الرؤية بأن أوصى وهو المقيم في نيويورك، بحرق جثته وحمل رمادها في رحلة أخيرة إلى لبنان بتلون الطائفي والمذهبي، حيث تشكل بدءاً فكره المعقد، ولیمارس آخر طقوسه في نفي المكان، فلا قبر يضم جسده ولا أرض تحتويه أو مكان يأويه.

الخاتمة:

وقد خلص البحث إلى ما يأتي:

- 1- أن فكرة الوطن عند إدوارد سعيد فكرة مبالغ فيها، حيث يرتبط بالأوطان الكثير من العاطفة التي لا يبالي بها.
- 2- أن الوطن الحقيقي عند إدوارد سعيد مرتبط باللامكان، وأن سيرته الذاتية "خارج المكان" نص معبر بعمق ووضوح عن تصوره هذا.
- 3- لم يرتبط إدوارد سعيد بالأمكنة التي حل فيها ارتباطا وجدانيا، وقد استعاض عن ذلك بالأكاديميا العلمية.
- 4- معظم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع درست على أنحاء متعددة ومختلفة، في حين ركز البحث الحالي على تأمل معنى (الوطن خارج المكان).

Motherland is out of place A Study of Said's Autobiography

Ahlam Masad, Languages Center, Yarmouk University, Irbid, Jordan.

Abstract

Based on analyzing the images and conceptions perceived in Edward Said's *Out of Place*, this paper attempts to explore the reasons why Said does not attach himself to a specific place of identity or to a nostalgic restored place described as the lost place. These reasons are a unique layout Said portrayed to deal with the place. They also show an intense paradox of the image represented in various cultural classical literature tackling the relationship between man in exile, place, and motherland. Thus, Said presented a new image of his relationship with place in line with the different spatial frameworks he lived in, with all its cultural and social components. Yet, he lacked, in these different places, the familiarity, identity and security. These feelings and emotions made him aware that he is always displaced or in the wrong place and pushed him to seek salvation while, simultaneously, enabling him to free himself from the past. He also presents an alternative thought to the phenomenon of connection to one's motherland. This alternative notion in finding home out of place, a placeless home, is the main component that encompasses his vision of academic knowledge.

Keywords: Edward Said, motherland, identity, nostalgia, the place.

الهوامش

- 1- زياد الزعبي: مقدمته لكتاب المكان في الثقافة الوطنية، وثائق المؤتمر الثقافي الوطني السادس، الجامعة الأردنية، 2010/5/5-2، ص6.
- 2- إدوارد سعيد: تأملات حول المنفى، ص 131.
- 3- هيرمان: المعاني الكثيرة لكلمة الموطن في الألمانية، مجلة فكر وفن، ع75، سنة 30، 1993، ص15.
- 4- المرجع السابق، ص 15.
- 5- المرجع السابق، ص16.
- 6- المرجع السابق، ص18.
- 7- خارج المكان: ص45.

- 8- خارج المكان:ص25.
- 9- خارج المكان: ص 36.
- 10- بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1، ج2، ص569.
- 11- خارج المكان: ص28.
- 12- مايك كرانغ: الجغرافيا الثقافية، ص140
- 13- بيتر بونسن: حيث ما كان أحد، مجلة فكر وفن، ع75، سنة 30، 1993، ص 30.
- 14- خارج المكان:ص156.
- 15- خارج المكان: ص155.
- 16- خارج المكان: ص132.
- 17- خارج المكان: ص184.
- 18- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ص19.
- 19- خارج المكان: ص184.
- 20- خارج المكان: ص181.
- 21- عبد الله التركماني: إدوارد سعيد المثقف الكوني والهوية المركبة، بصمات، ع2، يونيو/ حزيران 2007، ص60.
- 22- تأملات حول المنفى، ص 346. وانظر دراسة جمال مقابلة وعلي عشا "المفكر الإنساني لدى إدوارد سعيد، هويته ومسؤوليته أنموذجه". كلية الآداب جامعة القاهرة، جمهورية مصر العربية، مج 71، ع3، يوليو، 2011.
- 23- خارج المكان: ص 9.
- 24- خارج المكان: ص109.
- 25- إدوارد سعيد: عن العالم والنص والناقد، الكرمل، ع78، شباط 2004، ص 122.
- 26- إدوارد سعيد: من القدس وبيروت إل سياتل، مجلة الحياة، 1 أكتوبر/ 2003.
- 27- أندري، لالاند: الموسوعة الفلسفية، مج(A-G) ت خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط2، 2001، ص303.
- 28- هيرمان: المعاني الكثيرة لكلمة الموطن في الألمانية، ص 15.

- 29- حاوره صبحي حديدي: إدوارد سعيد: الهويات تعددية والمنفى حقل كريم، الكرمل، ع78، شتاء 2004، ص105.
- 30- خارج المكان: 20.
- 31- انظر إلياس خوري: سؤال النكبة: الصراع بين الحاضر والتأويل إدوارد سعيد ومسألة فلسطين، الكرمل، ع78، شتاء 2004، ص 46.
- 32- خارج المكان: ص226.
- 33- شمس الدين شرفي: جدلية الشرق والغرب، ص19.
- 34- غلين باومن: خيال المنفى: بناء المكان الفلسطيني من خارجه، الكرمل، ع60، صيف 1999، ص9، ص10.
- 35- إيتون هي واحدة من تسع مدارس إنجليزية مستقلة، هي مدرسة داخلية كاملة، وهي واحدة من المدارس العامة الأربع المتبقية للذكور فقط في المملكة المتحدة. وقد تلقى تسعة عشر رئيس وزراء بريطاني تعليمه في كلية إيتون.
- 36- خارج المكان: ص231.
- 37- خارج المكان: ص 70.
- 38- بيل اشكروفت: الإمبراطورية ترد بالكتابة، ص32.
- 39- خارج المكان: ص70.
- 40- خارج المكان: ص72.
- 41- خارج المكان: ص261.
- 42- إدوار سعيد: صور المثقف، ص62.
- 43- خارج المكان: ص352.
- 44- خارج المكان: ص192.
- 45- خارج المكان: ص203.
- 46- خارج المكان: ص329.
- 47- خارج المكان: ص خارج المكان: ص207.
- 48- خارج المكان: ص208.
- 49- هيرمان: المعاني الكثيرة لكلمة الموطن في الألمانية، مجلة فكر وفن، ع75، سنة 30، 1993، ص18.
- 50- خارج المكان: ص292.

- 51- لندا أندرسن: السيرة الذاتية والمنفى، ت: هند شاهين، المجلة الثقافية، ع91، 2017، ص66.
52- خارج المكان: ص268.
53- خارج المكان: ص268، ص269.
54- خارج المكان: ص290، ص291.
55- خارج المكان: ص286، ص287.
56- خارج المكان: ص305، ص306.
57- لندا أندرسن: السيرة الذاتية والمنفى، المجلة الثقافية، ع91، 2017.

المراجع:

- أبو عودة، تيسير: المثقف الطباقي: إدوارد سعيد وغواية المنفى، www.aljazeera.net
أشكروفت، بيل، جاريث جريفيثيز، هيلين تيفين: الإمبراطورية ترد بالكتابة - آداب ما بعد
الاستعمار - النظرية والتطبيق، ت: خيرى دومة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،
ط1، 2005.
أندرسن، لندا: السيرة الذاتية والمنفى، ت: هند شاهين، المجلة الثقافية، ع91، 2017.
أندري، لالاند: الموسوعة الفلسفية، مج (A-G) ت خليل أحمد خليل، منشورات عويدات،
بيروت، لبنان، ط2، 2001.
باومن، غلين: خيال المنفى: بناء المكان الفلسطيني من خارجه، الكرمل، ع60، صيف 1999.
بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1، ج2.
بونسن، بيتر: فكر وفن، حيث ما كان أحد، مجلة فكر وفن، ع75، سنة 30، 1993.
التركماني، عبد الله إدوارد سعيد المثقف الكوني والهوية المركبة، مجلة كلية الآداب والعلوم
الإنسانية بنمسيك - جامعة الحسن الثاني - المحمدية - الدار البيضاء - المغرب
"بصمات" - العدد (2) - يونيو/ حزيران 2007.

- حديدي، صبحي: إدوارد سعيد: الهويات متعددة والمنفى حقل كريم، الكرمل، ع78، شتاء 2004.
- خوري، إلياس: سؤال النكبة: الصراع بين الحاضر والتأويل إدوارد سعيد ومسألة فلسطين، الكرمل، ع78، شتاء 2004.
- الزعبي، زياد: المكان في الثقافة الوطنية، وثائق المؤتمر الثقافي الوطني السادس، الجامعة الأردنية، 2-2010/5/5.
- سعيد، إدوارد: صور المثقف، "محاضرات ريث سنة 1993"، النهار، بيروت، 1996.
- سعيد، إدوارد: تأملات حول المنفى. ت: ثائر الأديب، ط2، دار الآداب، بيروت، 2007.
- سعيد، إدوارد: خارج المكان، ت: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2000.
- سعيد، إدوارد: عن العالم والنص والناقد، الكرمل، ع78، شباط 2004.
- سعيد، إدوارد: الثقافة والإمبريالية، ت: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط4، 2014.
- شرفي، شمس الدين: جدلية الشرق والغرب، أو الهجنة والمشروع الكولونيالي (إدوارد سعيد نموذجاً)،
- كرانغ، مايك: الجغرافيا الثقافية، ت: سعيد منتاق، عالم المعرفة، ع317، 2005.
- مقابلة، جمال. وعلي عشا، المفكر الإنساني لدى إدوارد سعيد، هويته مسؤوليته أنموذجه. كلية الآداب، جامعة القاهرة، جمهورية مصر العربية، مج 71، ع3، يوليو، 2011.
- هيرمان: المعاني الكثيرة لكلمة الموطن في الألمانية، مجلة فكر وفن، ع75، سنة 30، 1993.